منهج الإسلام في حماية البيئة في مكة المكرمة

د. عبد العزيز شاكر الكبيسي

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الشريعة والقانون

جامعة الإمارات العربية المتحدة

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد اصبحت قضية البيئة وحمايتها ، والمحافظة عليها من التلوث من اهم قضايا العصر، وتمثل بعداً رئيسياً من ابعاد التحديات التي تواجه العالم اليوم.

وتتجلى هذه الأهمية من خلال تعلق البيئة وقضية حمايتها ، بنوعية الحياة التي يحياها الإنسان، بل باستمرار حياته على هذه الأرض .

وقد وضع الإسلام منظوراً شاملاً متكاملاً ومتميزاً لمفهوم البيئة وقضاياها المختلفة وطرق التعامل معها وحمايتها وذلك من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واجتهادات علماء المسلمين وفقهائهم.

وقد وضع الإسلام معالم كثيرة ،وأرسى دعائم عديدة، لحماية البيئة بعناصرها الرئيسة الثلاثة ((الماء، والهواء والتراب)) من التلوث حفاظا على حياة الإنسان الذي جعله الله مستخلفا في هذا الكون..

وسأتناول في بحثي : منهج الإسلام في حماية البيئة في مكة المكرمة وفق المحاور الآتية :

أولا : تعريف البيئة في اللغة والاصطلاح .

ثانيا : حديث القرآن الكريم عن النسق البيئي في مكة المكرمة.

ثالثا : حرص الإسلام على حماية البيئة المائية .

رابعا : حرص الإسلام على حماية البيئة البرية .

خامسا : حرص الإسلام على حماية البيئة الجوية .

سادسا : تدريب المسلم على احترام البيئة .

سابعا: الرقابة على حماية البيئة .

ثامنا : الجزاء على حماية البيئة والمحافظة عليها

وسيقوم البحث على إبراز هذه المحاور من خلال القران الكريم والسنة النبوية المطهرة واجتهادات العلماء .

***

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد اصبحت قضية البيئة وحمايتها، والمحافظة عليها من التلوث من اهم قضايا العصر، وتمثل بعداً رئيسياً من ابعاد التحديات التي تواجه العالم اليوم.

وتتجلى هذه الأهمية من خلال تعلق البيئة وقضية حمايتها، بنوعية الحياة التي يحياها الإنسان، بل باستمرار حياته على هذه الأرض .

والإسلام : الدين الذي ندين به، ونتشرف بالانضواء تحت رايته، وضع تصوراً متكاملاً عن الإنسان وعلاقته بالمحيط الذي يعيش فيه .

ووضع منظوراً شاملاً متكاملاً ومتميزاً لمفهوم البيئة وقضاياها المختلفة وطرق التعامل معها وحمايتها، وذلك من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة واجتهادات علماء المسلمين وفقهائهم.

ويستمد هذا المنظور أسسه من مقاصد ثلاثة لله تعالى من المكلفين من بنى الإنسان .

المقصد الأول : عبادة الله تعالى .

المقصد الثاني : استخلاف الله للإنسان في الأرض، وهذا الاستخلاف يتم بإقامة الحق والعدل ونشر الخير والصلاح .

المقصد الثالث : عمارة الأرض، وعمارة الأرض إنما تتم بالغرس والزرع والبناء، والإصلاح والإحياء، والبعد عن كل إفساد وإخلال .

وهذه المقاصد كلها متداخلة ومتكاملة ومتلازمة، فعمارة الأرض تدخل في الخلافة، وكلتاهما ضرب من العبادة لله تعالى، كما أن العبادة تدخل فى الخلافة، فلا خلافة بلا عبادة .

وعلاقة المسلم بالكون من حوله علاقة متميزة . فالكون " أو البيئة " ليس عدواً للإنسان يريد أن يقهره، بل هو مخلوق مسخر لخدمة الإنسان ومنفعته .

فهو ـ أي الكون أو البيئة ـ يشترك مع الإنسان فى كونه مخلوقا لله تعالي، ويشترك مع المسلم فى سجوده وتسبيحه لله جل شأنه .

ومن أجمل ما جاء به الإسلام فى علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون عامة من حوله، إنشاء عاطفة الود والحب لما حول الإنسان من كائنات حية او جامدة، فالأحياء من الدواب والطيور يراها أمماً أمثالنا، لكل أمة خصائصها وطرائقها كما نبه على ذلك القرآن الكريم.

قال تعالى :

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون ﴾ (١)

ولا ينظر الإسلام للبيئة على أنها مادية بحتة، بل يراها مادية ومعنوية، عقيدة وعبادة، دنيوية وأخروية .

وقد وضع الإسلام معالم كثيرة،وأرسى دعائم عديدة، لحماية البيئة بعناصرها الرئيسة الثلاثة ((الماء، والهواء، والتراب)) من التلوث حفاظا على حياة الإنسان الذي جعله الله مستخلفا في هذا الكون..

وقد تضمن بحثي الموسوم " منهج الإسلام في حماية البيئة في مكة المكرمة " تمهيدا وأربعة فصول وخاتمة :

أما التمهيد فقد اشتمل على :

أولا : تعريف البيئة في اللغة والاصطلاح .

١- سورة الأنعام : ٣٨ .

ثانيا : حديث القرآن الكريم عن النسق البيئي في مكة المكرمة.

وفي الفصل الأول : تحدثت عن حرص الإسلام على حماية البيئة المائية .

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن حرص الإسلام على حماية البيئة البرية .

وأما الفصل الثالث فقد عقدته لبيان حرص الإسلام على حماية البيئة الجوية .

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن الرقابة على حماية البيئة وترتيب الجزاء على ذلك .

وأما الخاتمة : فقد ضمنتها مجموعة من التوصيات والمقترحات التي أرى من الضرورة بمكان التنبيه عليها ، والدعوة اليها .

وسيقوم البحث على تناول هذه المحاور من خلال القران الكريم والسنة النبوية المطهرة واجتهادات العلماء .

سائلا المولى عز وجل أن يوفقنا جميعا لما فيه خدمة البشرية وسعادتها انه نعم المولى ونعم المجيب .

***

تمهيـــد :

ويتضمن ما يأتي :

أولاً : تعريف البيئة في اللغة والاصطلاح

أ – البيئة لغة :

البيئة مأخوذة من الفعل " باء " يقال باء يبوء بوءاً ومباءة، وله في اللغة عدة معان، منها :

١. الرجـــوع والاعتراف : يقال : باء بحقه، رجع واعترف به وأقر به.

٢. الثقل : يقال : باء بذنبه أي ثقل به.[١]

٣. الالتزام : ومنه ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله (صلى اله عليه وسلم) قال: "ايما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما" [٢].أي التزمه، وأصل البواء اللزوم .[٣]

٤. وأشهر معاني البـاءة أو المبـاءة . هـي : الموضع أو المنزل والاقامة .

وأصل الباءة من الموضع الذي تبوء اليه الابل، أي ترجع، ثم جعل عبارة عن المنزل، ثم كني به عن الجماع، اما لأنه لا يكون الا في الباءة غالباً، أو لأن الرجل يتبوأ من أهله، أي يستمكن . كما يتبوأ من داره .

١– انظر الكليات لابي البقاء الكفوي ٢٥٠ ، اساس البلاغة للزمخشري : ٥٣ .

٢ – اخرجه البخاري في صحيحه برقم ٦١٠٤.

٣ – انظر النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير : ١/ ١٥٩ .

وبمعنى الموضع أو المنزل جاء قوله تعالى : ﴿ وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا ﴾.[١]

وبوأكم : أي أنزلكم .

وقوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ [٢]

أي مباءة حسنة .

فالبيئة بهذا المفهوم اللغوي هي موضع الاقامة ، فتشمل كل مرافق الاقامة من منزل ومدينة ومجتمع وغيرها ، وهذا المعنى هو المرتبط بموضوع بحثنا عن البيئة.

ب- البيئة اصطلاحاً :

هناك عدة تعريفات للبيئة ، من أهمها :

١- البيئة: هي الوسط المكاني الذي يعيش فيه الانسان، بما يضم من عناصر حية وغير حية يتأثر بها ، ويؤثر فيها .

وهذا المفهوم هو المعنى العام للبيئة في اللغة الذي سبق بيانه ، اذ الموضع أو الاقامة او المنزل الذي يستقر فيه الانسان، ويزاول مهام حياته اليومية ، هو محل تنفيذ نشاطاته الطبيعية والصناعية.

وهذا المفهوم يبين أيضاُ الدور الذي يحدثه الانسان في التعايش مع البيئة سواء منها الطبيعي او المشيد .[٣]

---

١ – سورة الأعراف : الآية ٧٤ .

٢ – سورة النحل : الآية ٤١ .

٣ – انظر حماية البيئة من منظور إسلامي : ٣ .

٢– البيئة هي : كل شيء يحيط بالانسان .

وهو مفهوم اعلان " استوكهولم " بالسويد عام ١٩٧٢ م.

وقرروا في هذا الاعلان أن مفهوم البيئة يشمل شيئين أساسيين هما : البيئة الطبيعية والبيئة البشرية .

فالبيئة الطبيعية هي : كل ما يحيط بالانسان من عناصر حية وغير حية . وليس للانسان دور في وجودها .

والبيئة البشرية هي: البيئة المشيدة التي صنعها الانسان نتيجة تفاعله مع بيئته التي يعيش فيها .

٣– البيئة هي : مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الانسان مع الكائنات الحية الأخرى التي تستمد منها زادها وتؤدي فيها نشاطها . وهذا المفهوم أعم وأشمل مما سبقه، لأنه يشمل على النظم والقواعد التي تحدد مسار التعايش بين عناصر البيئة، اضافة الى المكونات الأخرى للبيئة التي تؤدي دوراً فاعلاً في محيطها. (١)

٤– البيئة هي : مجموع العوامل الطبيعية والبيولوجية والعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاور في توازن وتؤثر على الانسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر.

وهذا التعريف هو ما انتهى اليه الدكتور أحمد عبد الكريم سلامة في بحثه " حماية البيئة في الفقه الاسلامي " (٢)

---

١ – الشريعة الاسلامية وحماية البيئة للدكتور عبدالعزيز خليفة القصار ٥– ٦

٢ – حماية البيئة في الفقه الاسلامي للدكتور احمد عبدالكريم : ٢٧٢ .

ومن خلال ما سبق ذكره يمكن أن نختار مفهوماً للبيئة وهو : " الوسط المكاني الذي يعيش فيه الانسان مع غيره من الكائنات الحية وغيرها . تجمعهما علاقات منظمة قائمة على التأثير والتأثر " .

وهذا المفهوم لا يختلف في مضمونه عن المفاهيم السابقة، الا أنه يتميز بالاهتمام بالعنصر الفاعل في هذه المنظومة البيئية، وهو الانسان القادر على احداث التغيرات الايجابية في المكان الذي يعيش فيه ويؤثر في المحيط الذي يحويه .[١]

ثانيا : حديث القرآن الكريم عن النسق البيئي في مكة المكرمة

بينت النصوص القرآنية ان مكة مدينة جدباء، شديدة الحرارة، شحيحة المياه، تحوطها الجبال، يعيش سكانها على ما يفد إليها من رزق الله لهم، ولذلك فحياة أولئك السكان متوقفة على حب الناس للبيت الحرام وزيارتهم له، ومن ثم قيام أهل مكة بتيسير سبل إقامة هؤلاء الزوار، علاوة على قيامهم بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٢]

١- انظر : الإنسان وقضايا البيئة للدكتور ضاري العجمي والدكتور عبدالمنعم مصطفى :٦- ١٢ ، قضايا بيئية معاصرة للدكتور زين الدين عبدالمقصود :١٧ ، التربية البيئية للدكتور محمد منير سعد الدين :٥ .

٢- سورة القصص : ٥٧ .

ويقول أيضا :

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (١)

وقد قال الله على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (٢)

صورة فضائية لمكة المكرمة

١ – سورة التوبة : ١٩ .

٢– سورة ابراهيم : ٣٧ .

كما توّضح النصوص القرآنية طبيعة مكة ومناخها الحار، حيث كان السكان يحتمون من شدة الحر بالبيوت والسرابيل .

وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين ❖ والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وتقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ (١)

وقد تحدث القران في الآية الثانية عن نوعين من السرابيل :

الأول : يقي من شدة الحر وخطره .

والثاني : يقي من خطر الحرب . (٢)

كما نجد دعوة الإسلام الى المحافظة على التوازن البيئي من خلال الآيات المكية .

فالبيئة بكل عناصرها تخضع لقانون التوازن وهذا النظام لا يقوم بوظائفه على الوجه الأكمل الا في ضوء التوازن المذكور وأي خلل في عنصر من عناصرها يؤدي الى خلل جميع عناصرها.

ولهذا فإن الحديث عن الأرض كأحد مصادر البيئة الرئيسة لا يمكن فصله عن العناصر الأخرى بسبب التشابك المعقد بين

---

١ – سورة النحل : ٨٠ – ٨١ .

٢– انظر التصوير القرآني للمجتمع : ١/ ١٤٢ .

عناصرها، قال تعالى: ﴿ وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ [١].

ولا غرو بعد ذلك إذ رأينا العلماء يطلقون على الأرض تسمية (صانعة الحياة) اذ انها تمد البشر بما يحتاجون اليه من مواد سواء كانت هذه المواد موجودة على ظهرها او مخزونة في باطنها..

إن الآية المذكورة تدل دلالة واضحة على ان كل موارد البيئية الحية كالحيوان والنبات وغير الحية كالهواء والماء والتربة تخضع لقانون التوازن وعليه فأي اعتداء على عنصر من عناصرها هو اعتداء على جميع عناصرها لأنه سيؤدي لا محالة الى اضطراب في وظائف هذه العناصر وتختل معها العلاقات التفاعلية التبادلية بينها ومن ثم تتحول عناصرها البيئية من عناصر مفيدة الى عناصر ضارة مسببة للكثير من الأخطار التي تهدد مستقبل مسيرة الحياة .

وقد نبهت الآيات المكية على أهمية البيئة وذكرت كثيرا من عناصرها من ارض وسماء وسحب وأمطار وسهول وجبال وانهار وبحار وأشجار وحيوانات مختلفة، وأشارت الى خصائصها والتفاعلات التي تحدث بينها وتحث على التفكير فيها واستنتاج القوانين التي تنظم العلاقة بين أجزائها والانتفاع بها على أحسن وجه .

وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿الم تر أن الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ❖

١- سورة الحجر : ١٩ .

ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور ﴾ (١)

كما تحدث القران في مرحلة الدعوة المكية عن التوازن البيئي ولفت أنظار المسلمين وغيرهم الى أن الله تعالى لم يخلق الأشياء كيفما اتفق، وإنما جعل لكل عنصرا منها قدرا معينا يتناسب مع الحاجة إليه وينسجم مع غيره من الموجودات التي تتأثر به .

قال تعالى :

﴿ والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ❖ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ❖وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ❖ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين ﴾ (٢)

وقد سخر الله تعالى هذا النظام البيئي لمصلحة الإنسان بتقدير موزون وأمره بالاستفادة منه .

قال تعالى :

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ❖ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ❖ واتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٣)

١– سورة فاطر : ٢٧ – ٢٨ .

٢– سورة الحجر : ١٩ – ٢٢ .

٣– سورة ابراهيم : ٣٢ – ٣٤ .

فالأرض خلقها الله عز وجل بترتيب دقيق بديع ومتزن بحيث تحوي الجبال والأودية والسهول تتخللها الأنهار والبحيرات بالإضافة الى الصحراء الشاسعة .

قال تعالى :

﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لكم رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أألـه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١)

كما حرص القرآن الكريم في المرحلة المكية على وضع تصور متكامل عن الإنسان وعلاقته بالمحيط الذي يعيش فيه .

فالإنسان في المنظور القرآني مستخلف في الأرض ومكلف بعمارتها.

قال تعالى :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾(٢) .

والبيئة التي يعيش فيها الإنسان وغيره من الكائنات الحية بيئة احكم الله صنعها ، وأتقن خلقها عز وجل كماً ونوعاً ووظيفة:

﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ (٣)

وأوجد هذه البيئة بمكونات او معطيات ذات مقادير محددة بحيث توفر سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره :

---

١ – سورة النمل : ٦١ .

٢– سورة هود ٦١

٣– سورة النمل : ٨٨ .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [١] .

﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديرا ﴾ [٢]

وبعد أن استخلف الله الإنسان في الأرض أمره بان يلتزم بالمحافظة على البيئة التي استخلفه فيها ، وحذره من إفسادها ، وإخراجها عن طبيعتها الملائمة لحياة الإنسان.

وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [٣] .

وقال أيضا :

﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ [٤].

وتلويث البيئة يعد صورة من صور الإفساد الذي نهى الله تعالى عنه .

كما حرّم الإسلام أن تستثمر موارد البيئة بطريقة مضرة لها ، ووضع قواعد فقهية لذلك.

ومن تلك القواعد :

((لا ضرر ولا ضرار))

و ((درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح)) .

١– سورة القمر :٤٩.

٢– سورة الفرقان : ٢

٣ – سورة الأعراف : ٥٦ .

٤– سورة القصص : الآية ٧٧

ووضع الإسلام معالم كثيرة، وأرسى دعائم عديدة، لحماية البيئة بعناصرها الثلاثة ((الماء، والهواء، والتراب)) من التلوث حفاظا على حياة الإنسان الذي جعله الله مستخلفا في هذا الكون.

ونجد في موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع جبل أحد يوم أن اهتز به طربا كما روى ذلك الإمام البخاري في صحيحه فقال له :

"اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان" (١).

وموقفه صلى الله عليه وسلم مع الجذع يوم أن حن إليه دلالة على العلاقة العاطفية التي يجب أن تكون بين الإنسان عامة والمسلم خاصة وبين مكونات البيئة.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – انه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحنّ الجذع، فأتاه، فمسح يده عليه "(٢)

ولو استعرضنا توجيهات الإسلام في مجال حماية مكونات البيئة في مكة المكرمة وغيرها من المدن والأمصار فسنجد انه قد اولى حماية هذه المكونات أهمية كبرى، وعناية فائقة، وبيان ذلك في الفصول الآتية :

---

١ – اخرجه البخاري برقم ٣٤٧٢ .

٢ – أخرجه البخاري برقم ٣٣٩٠ .

الفصل الأول

حرص الإسلام على حماية البيئة المائية

ففي مجال حماية الماء من التلوث نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تحفل بكثير من النصوص التي تحث على حماية الماء من التلوث ومنها:

أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى المسلم أن يقضي حاجته بالقرب من المصادر والموارد المائية حفاظاً على مياه الشرب، ومَنَع الإنسان من الاستحمام او الوضوء في الأماكن الملوثة، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه)) [١].

وقال أيضا:

((لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه أو يشرب)) [٢]

وشدد النبي صلى الله عليه وسلم في قضية تلويث مصادر المياه، فعد تلويث تلك المصادر مجلبة للعن كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

((اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق والظل)) [٣].

١- أخرجه البخاري برقم ٢٣٦ ومسلم برقم ٢٨٢ واللفظ له.

٢- اخرجه ابن خزيمة برقم ٩٤.

٣- اخرجه ابو داود برقم ٢٦ وابن ماجه برقم ٣٢٨.

ومن المعروف أن أمراضا كثيرة تصيب الإنسان بسبب عدم الاهتمام بهذه التوجيهات النبوية، كمرض البلهارسيا، والكوليرا، والتهاب الكبد الوبائي، وغير ذلك.

وفي عصر الرسالة، وأيام النبوة لم يكن الناس يعرفون شيئا عن الميكروبات، والطفيليات حيث لم تكن هناك الوسائل العلمية التي تكشف بها، ومع هذا نجد ألفاظا وكلمات تحمل معنى الميكروبات والطفيليات والمواد الضارة، ككلمة نجاسة، وخبث، وغير ذلك من الكلمات.

يقول الله تعالى:

﴿ وثيابك فطهر ﴾[1].

وهذه الآية مكية، وهي من أوائل الآيات التي نزلت في المرحلة المكية.

وفيها دعوة صريحة إلى المحافظة على الطهارة المادية.

وقال سبحانه وتعالى في معرض الإشارة إلى التخلص من كل هذه المواد:

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾[2].

كما يلاحظ المتأمل في السنة النبوية المطهرة أن عنايتها بحماية الماء باعتباره اصل الحياة قد بلغت الى النهي عن مجرد التنفس

١- سورة المدثر: ٤

٢- سورة الانفال: ١١.

في إناء الماء، أو النفخ فيه، تلافيا لما عساه أن ينتقل اليه من ميكروبات، أو مسببات الأمراض تغير خواصه، وتجعله غير صالح لما خلق له .

وفي ذلك يقول صلوات ربي وسلامه عليه :

"إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء " (١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما :

"أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يتنفس في الإناء أو أن ينفخ فيه " (٢)

وقال عليه الصلاة والسلام :

"غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء " (٣)

أي لا تتركوا إناء الماء مكشوفا، حتى لا يتلوث، أو يتكدر فلا يصلح للسقيا.

كما نجد أن الشارع الحكيم دعا إلى عدم استنزاف مصادر المياه، ونهى عن الإسراف في استعمال الماء، وان كان ذلك في عبادة هي من أشرف العبادات وأجلّها – وهي الطهارة التي تعد مفتاح الصلاة – .

يقول الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –:

١- اخرجه البخاري في صحيحه برقم ١٥٢ .

٢- اخرجه الترمذي في سننه برقم ١٨٨٨.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٠١٢ .

" مر النبي صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ ،فقال :

ما هذا السرف يا سعد ؟

فقال سعد : وهل في الماء سرف ؟

قال :" نعم وان كنت على نهر جار" (١)

وقد طبّق عليه الصلاة والسلام هذه التوجيهات الكريمة على نفسه من الناحية العملية مقدّما للأمة القدوة والأسوة في عدم الإسراف في استعمال الماء.

فقد " كان صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصاع ، ويتوضأ بالمد ". (٢)

والصاع لا يكاد يزيد في أيامنا هذه عن لتر من الماء، حتى إن أحد التابعين لما روي له هذا الحديث قال :

"إنّ هذا لا يكفي"

فقال له جابر رضي الله عنه :

"لقد كان يكفي من هو أوفى منك شعرا ، وخير منك " (٣)

كما طبّق عليه الصلاة والسلام هذه التوجيهات عندما كان يغتسل هو وإحدى زوجاته – وهي عائشة رضي الله عنها – من إناء واحد ، تختلف فيه أيديهما .

١– اخرجه ابن ماجه في سننه برقم ٤٢٥ .

٢– اخرجه البخاري في صحيحه برقم ١٩٨ ومسلم في صحيحه برقم ٣٢٦.

٣– اخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٤٩ .

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت :

" كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد " (١)

ولا شك ان هذه التوجيهات التي مرت معنا في مجال المحافظة على البيئة المائية عامة تشمل المجتمع المكي وغيره من المجتمعات الإسلامية .

وهي تعالج أساسا متينا لحل مشكلة تعد من أهم المشكلات البيئية ألا وهي مشكلة ندرة المياه العذبة ، ولا سيما في مكة المكرمة.

***

١ – أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٤٧ .

الفصل الثاني

حرص الإسلام على حماية البيئة البرية

يعد النبات من عناصر الحياة الأساسية للإنسان، والحيوان، ويصنفه العلماء ضمن سلسلة المنتجات، وهي السلسلة الأولى في مجموعة سلاسل الأحياء التي يعتمد بعضها على بعض، والمنتجات توفر الغذاء لنفسها، وللأحياء الأخرى التي تعرف بالمستهلكات، وتشمل الحيوانات، وصور الحياة الدنيا التي لا تحتوي أجسامها على صبغة الكلوروفيل.

وقد دعا الإسلام الى حماية مكونات تلك البيئة البرية وذلك من خلال الدعوة الى حماية الغطاء النباتي والموارد الزراعية، وتشجيع أتباعه على النهوض بعملية التشجير، المتمثلة في غرس الأشجار وزراعتها، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا، فيأكل منه طير او إنسان او بهيمة إلا كان له به صدقة))[1] .

ويبلغ الأمر النبوي الكريم غايته في الحث على الزراعة عندما يقول:

((إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها)) (٢)

كما نجد أن الإسلام يدعو الى العمل على إدامة الغطاء

١- اخرجه البخاري برقم ٢١٩٥ ومسلم برقم ١٥٥٢ .

٢- اخرجه احمد في مسنده برقم ١٣٠٠٤ ، والبخاري في الادب المفرد برقم ٤٧٩ .

النباتي، وعدم التعدي عليه بالقطع الجائر الذي يفوت المنافع من هذا الغطاء، وينهى عن تدمير البيئة النباتية .

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار))[١] .

سئل الإمام أبو داود – رحمه الله تعالى – عن معنى هذا الحديث فقال : "هذا الحديث مختصر ، يعني من قطع سدرة، في فلاة، يستظل بها ابن السبيل، والبهائم، عبثا، وظلما بغير حق يكون له فيها، صوّب الله رأسه في النار " [٢]

وهذا الحديث حمله بعض شرّاحه على سدر الحرم فقط، ومنهم من توّسع في ذلك فقال : المراد بذلك كل ما ينبت في البر، يستظل به الناس وغيرهم .

قال ابن الأثير :

" قيل أراد به سدر مكة لأنها حرم، وقيل سدر المدينة نهي عن قطعه ليكون أنسا، وظلا لمن يهاجر اليها، وقيل أراد السدر الذي يكون في الفلاة، يستظل به أبناء السبيل والحيوان، أو في ملك إنسان فيتحامل عليه ظالم، فيقطعه بغير حق " [٣]

وأيا كان فهاهنا دعوة صريحة من النبي صلى الله عليه وسلم للحفاظ على البيئة النباتية في مكة المكرمة وعدم الاعتداء عليها

١– اخرجه ابو داود برقم ٥٢٣٩ .

٢ – سنن أبي داود : ٤/ ٣٦١ .

٣– النهاية في غريب الحديث والأثر : ٢/ ٣٥٣ –٣٥٤ .

بالقطع الجائر، وجعل عليه الصلاة والسلام هذا الإتلاف والإفساد سببا من أسباب دخول النار واستحقاق العذاب في الآخرة.

والوعيد بالنار لمن قطع سدرة يدل على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية لما توفره من حفظ التوازن بين المخلوقات وما يمثله الاعتداء عليها من فقدان بعض العناصر المهمة لسلامة الحياة والإنسان، وبهذا سبقت السنة النبوية الجماعات والأحزاب البيئية المعاصرة في كثير من أنحاء العالم التي تنادي بالمحافظة على ((الخضرة) في الغابات وغيرها وتندد بقتلة(الأشجار) وبـ (المذابح) التي تتعرض لها الأراضي الخضراء نتيجة جهل الإنسان وجشعه .

وتتجلى عظمة الإسلام في هذا الميدان أيضا عندما يحرم على جنده أن يقطعوا الأشجار في حروبهم مع أعدائهم

وها هو الخليفة الراشد أبو بكر الصديق –رضي الله عنه – يقول ليزيد بن أبي سفيان عندما أمرّه على أحد الجيوش التي وجهها إلى بلاد الشام :

"إني موصيك بعشر ٠٠٠ " وذكر منها :" ٠٠ ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا نخلا ، ولا تحرقها ".

ولقد فهم الصحابة الكرام هذا المغزى التربوي وطبقوه في حياتهم العلمية ، فقد غرس أبو الدرداء – رضي الله عنه – صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم شجرة جوز – وهو شيخ طاعن في السن – فسأله أحدهم : أتغرس هذه الشجرة وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا بعد كذا او كذا من السنين ؟

فأجابه أبو الدرداء:

((وماذا علي ان يكون لي ثوابها ولغيري ثمرتها))[١].

وغرس بعض الصحابة شجر زيتون وقال: ((غرس لنا من قبلنا فأكلنا ، ونغرس ليأكل من بعدنا)).

ولأهمية القشرة الأرضية لتجويد الزراعة ووفرة المحصول وحمايتها من التصحر

يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – :

((لا تهتكوا وجه الأرض فان شحمتها في وجهها)).

ومن المعلوم أن الأشجار تخلص البيئة من كميات كبيرة من غاز ثاني أو كسيد الكاربون المضر بالصحة ، كما لها دور كبير في إنتاج كمية كبيرة من الأوكسجين اللازم لحياة الإنسان والحيوان، كما تقوم الأشجار أيضا في المناطق الصناعية والمدن التي تحيط بها الجبال او الصحاري بتقليل كمية الأتربة والماد الملوثة الموجودة في الهواء حيث تعمل كمصفاة منقية للهواء .

ومن هنا نجد أن كثيرا من المدن في عالم اليوم قد لجأت الى إنشاء ما يسمى بالحزام الأخضر حول المدن .

كما ان للأشجار دورا كبيرا في تثبيت الرمال، ومنع زحفها ، وبالتالي تؤدي الى منع ظاهرة التصحر التي تهدد كثيرا من الدول .

وقد سمى الإسلام محاربة التصحر : إحياء الأرض، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

١– الايمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي :٢٦١.

"من أحيا أرضا ميتة فهي له" (١)

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسبب في وقوع الضرر، وإلحاقه بالآخرين فقال :

((لا ضرر ولا ضرار))(٢) .

ولا شك أن تلوث التربة ضرر يحيق بالبيئة الزراعية، وينتقل أثره الى كل الكائنات الحية التي تعتمد في غذائها على النباتات بما في ذلك الإنسان نفسه .

ومن أروع ما جاء به الإسلام للحفاظ على البيئة النباتية والحيوانية : فكرة المحميات الطبيعية تلك الفكرة التي دعا إليها القرآن الكريم، وأكدتها السنة النبوية الشريفة، وذلك من خلال تدريب المسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة أن يحترم حيوانات البيئة، ونباتها، فلا يحل قتل صيدها، ولا قطع شجرها، كما جعل من منطقة الحرم في مكة (بيئة محمية) لا يمس فيها حيوان الا المؤذي، ولا نبات الا ما اقتضته الضرورة .

ويدل على ذلك ما جاء في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح :

" إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة، وانه لم يحل القتال فيه لأحد من قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله الى يوم

١– اخرجه ابو داود برقم ٣٠٧٤ والنسائي في سننه الكبرى برقم ٥٧٦٢ وغيرهما .

٢– اخرجه الحاكم في مستدركه ٦٦/٢ ، وابن ماجه برقم ٢٣٤١ .

القيامة، لا يعضد شوكه [١]، ولا ينفّر صيده [٢]، ولا يلتقط لقطته إلاّ من عرّفها، ولا يختلى خلاها [٣]" فقال العباس : يارسول الله إلاّ الأذخر، فانه لقينهم [٤] ولبيوتهم، فقال : " إلاّ الأذخر " [٥].

وقد أجمع أهل العلم على تحريم قتل الصيد واصطياده على المحرم بحج أو عمرة . [٦]

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾[٧]

وقال سبحانه :

﴿ وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ [٨].

وبيّن الفقهاء أن صيد البر يحرم على المحرم بأمور :

١- أن يصيده بنفسه

٢- أن يأمر غيره بصيده

---

١ – لا يعضد شوكه : أي لا يقطع . أنظر غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٠٣ .

٢ – ولا ينفر صيده : أي لا يزعج من مكانه ، وهو تنبيه من الأدنى الى الأعلى ، فلا يضرب ، ولا يقتل بالطريق الأولى . عمدة القاري للعيني ٢٢٤/٩ .

٣ – الخلا : الحشيش الرطب .

٤ – القين : الحداد . فتح الباري لابن حجر : ٣ / ٢١٤ .

٥ – اخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣١٨٩ ، ومسلم في صحيحه برقم ١٣٥٣ .

٦ – أنظر بداية المجتهد لابن رشد : ١ / ٢٦٢ ، المغني لابن قدامة : ٣ / ١٤٣ .

٧– سورة المائدة : ٩٥ .

٨– سورة المائدة : ٩٦ .

٣- أن يشير بصيده او يدل عليه .

٤- أن يكون صيد من اجله سواء علم بذلك او لم يعلم .[١]

كما حرّم الإسلام تنفير الصيد في مكة المكرمة، كما مر ذلك معنا في قوله صلى الله عليه وسلم : " ولا ينفّر صيده " .

وإذا كان حرم مكة قد أُجمع عليه عند المسلمين، فإن المدينة أيضا هي حرم عند الجمهور [٢]، كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها:

قوله صلى الله عليه وسلم: " إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها، واني حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة "[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه كان يقول: " لو رأيت الظباء ترتع بالمدينة ما ذعرتها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بين لابتيها حرام " [٤] .

ففي هذه الأحاديث دليل على ان النبي صلى الله عليه وسلم قد خصص مناطق معينة في مكة والمدينة كمحميات طبيعية للمحافظة على البيئة النباتية والحيوانية.

---

١ – أنظر المغني لابن قدامة : ٣ / ١٤٣ – ١٤٥ .

٢ – أنظر سبل السلام للصنعاني : ٢ / ١٩٧ .

٣ – أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢١٢٩ ، ومسلم في صحيحه برقم ١٣٦٠ .

٤ – أخرجه البخاري في صحيحه برقم ١٧٧٤ ، ومسلم في صحيحه برقم ١٣٧٢ .واللابتان : تثنية لابة ، والحرة : هي الأرض ذات الحجارة السوداء أنظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ٤ / ٢٧٤ .

ويمكن أن يقاس عليها غيرها إذا ما أراد المسلمون الاستفادة من هذا النظام في المحافظة على الثروة النباتية والحيوانية مع علمنا بأن للحرمين أحكاما خاصة بهما، ولكن يستفاد من هذا النظام بصورة عامة.

كما يشار هنا الى ان هذه المحميات لها حدودها وأبعادها، وقد سن لها التشريعات المناسبة لحماية الحياة البرية فيها، وبذلك كان للإسلام السبق في إدخال هذه التشريعات الحضارية في المحافظة على البيئة.

كما نجد ان الإسلام قد حرص على سلامة البيئة المكية – كما حرص على سلامة غيرها – وذلك من خلال الدعوة الى قتل الضار من الحيوان والدواب.

والضار من الحيوان : هو ذلك الحيوان الذي يحصل منه الضرر المؤكد، ولا يتحقق من وجوده المنفعة الظاهرة، وكما أمر الإسلام بالاستفادة من النافع من الحيوان، أمر بقتل الضار منه لما يلحقه من أذى بالإنسان، وما يحدثه من فساد في البيئة .

وقد روت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال:

" خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الفأرة، والعقرب، والحدأة، والغراب، والكلب العقور " (١)

١– أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣١٣٦ ، ومسلم في صحيحه برقم ١١٩٨ .

ففي هذا الحديث نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل هذه الفواسق، بسبب الأذى، والضرر الذي يقع منها، ولو كان ذلك في حرم مكة، مع أن المقرر شرعا أن المحرم لا يجوز أن يقتل شيئا من الحيوانات .

قال الإمام مالك: " المعنى فيهن كونهن مؤذيات فكل مؤذ يجوز للمحرم قتله وما لا فلا " [1].

***

٢ – شرح صحيح مسلم للنووي : ٨ / ١١٣ .

الفصل الثالث

حماية البيئة الجويـــة

يعـد تلـوث الهـواء مـن اكـبر المـشاكل الـتي تواجـه المجتمعـات المعاصـرة، وبخاصـة في الـدول الـصناعية، وتزداد مأسـاة هـذا النـوع مـن التلـوث عامـا بعـد عـام نتيجـة للزيـادة التراكميـة في حجـم الملوثـات الـتي ينفثها الإنسان في الأجواء والماء والتربة.

ومـن المعـروف ان هنـاك علاقـة بـين تلـوث الهـواء وتلـوث كـل مـن المـاء والتربـة، حيـث يـؤثر كـل نـوع مـن هـذه الأنـواع مـن التلـوث في النـوع الآخر.

ويعرّف العلماء تلوث الهواء بأنه :

"وجـود مـواد صـلبة او سـائلة او غازيـة في الهـواء بكميـات تـؤدي الى وقـوع أضـرار فـسيولوجية، او اقتـصادية، او الاثـنين معـاً، بالإنـسان والحيـوان والنبـات والآلات والمعـدات، او تـؤدي إلى التـأثير في طبيعـة الأشياء وفي مظهرها وخصائصها الفيزيائية والكيميائية " (١).

وحمايـة الهـواء مـن الملوثـات مـن منظـور إسـلامي يعـد فرضـا عينيـا علـى كـل مـسلم ومـسلمة، مـن منطلـق ان التلـوث صـورة مـن صـور الإفـساد والضرر، والله تعالى يقول:

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ (٢)

---

١ – حماية البيئة من منظور اسلامي : ٩ .

٢– سورة الاعراف : ٥٦.

﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ (١)

﴿ ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب ﴾ (٢) .

وقد وقف فقهاء المسلمين القدامى من موضوع تلوث الهواء موقفا طيبا يدل على وعي كبير بأهمية المحافظة على الهواء من الملوثات المختلفة التي تؤثر في صحة الإنسان .

إذ كانت توكل الى المحتسب مهمة مراقبة التلوث بالأدخنة، ومنع حدوثها بجانب مهامه الأخرى .

يذكر الإمام الشيرازي في كتابه ((نهاية الرتبة في طلب الحسبة)) (٣) أن المحتسب كان يهتم بان ترفع أسقف حوانيت الخبازين، وأن تفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك السكان، كما كان المحتسب يمنع الصباغين من وضع أفرانهم في الشوارع، لما تبعثه من أدخنة تضايق المارة والسكان.

كما اهتم فقهاء المسلمين بموضوع حماية البيئة من التلوث بالروائح الكريهة، وذلك من خلال التوجيه النبوي الشريف ((من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا)) (٤) .

١– سورة البقرة : ١٩٥ .

٢– سورة البقرة : ٢١١.

٣ – ص ٦٣ .

٤– أخرجه البخاري برقم ٨١٧ .

فإذا كان على آكل الثوم أو البصل أن يبتعد عن المسجد، كي لا يضايق إخوانه من المسلمين برائحة فمه، فإنه يكون من الأولى عدم السماح للروائح الكريهة من الانتشار في أجواء المدن، وإيذاء السكان .

وتحفل كتب الفقه الإسلامي بأمثلة كثيرة تدل على عناية فقهاء المسلمين بحماية الهواء من التلوث بالروائح الكريهة .

فلقد سئل مطرف وابن المجيشون والأصبغ – وهم من فقهاء المالكية – عن حكم شخص أقام مدبغة في بيته، تنبعث منه الروائح الكريهة، فتؤذي جيرانه وتسبب لهم الضرر، فاجمعوا على حق جيرانه في إيقافه، وحكموا بإغلاق مدبغته .[1]

وكانت توكل الى المحتسب مهمة مراقبة تلوث بيئة المدينة والأسواق من التلوث بالروائح، فهو مكلف بمنع كل من تسول له نفسه ان يطرح النفايات والجيف في الأسواق والطرقات، ومنع الخضارين وغيرهم من طرح أزبالهم في الطرق، حتى لا تنتج عنها روائح كريهة، وحتى لا تكون مرتعا للحشرات ومصدرا من مصادر التلوث .

***

١– أنظر التاج والأكليل للعبدري : ٥ / ١٦٤ .

الفصل الخامس

الرقابة على حماية البيئة وترتيب الثواب والعقاب على ذلك

ويتضمن ما يأتي :

أولا : الرقابة على حماية البيئة من التلوث:

لم يكتف الإسلام بوضع الأحكام والقواعد التي تحمي البيئة المكية وغيرها من البيئات وتحافظ عليها ، بل شرع من الرقابة ما يضمن تنفيذ هذه الأحكام والقواعد .

والرقابة على حمايتها من التلوث في الإسلام تدخل في نظام الحسبة .

والحسبة : نظام إسلامي رائع عرفه المكيون كما عرفه غيرهم، وتعد من قواعد الأمور الدينية، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعظيم صلاحها وجزيل ثوابها ، وهي : أمر بالمعروف اذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله .

ويدخل في واجبات المحتسب حماية البيئة من التلوث، باعتبار أن الأمر بحماية البيئة من التلوث من باب الأمر بالمعروف، والنهي عن تلوثيها من باب النهي عن المنكر.

وقد كانت توكل الى المحتسب مهمة مراقبة التلوث بالأدخنة ومنع حدوثها بجانب مهامه الأخرى .

يذكر الإمام الشيرازي في كتابه ((نهاية الرتبة في طلب الحسبة))[1] ان المحتسب كان يهتم بان ترفع أسقف حوانيت

١ – ص ١٣٠ .

الخبازين، وان تفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الافران منافس واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك السكان، كما كان المحتسب يمنع الصباغين من وضع أفرانهم في الشوارع لما تبعثه من أدخنة تضايق المارة والسكان.

وفي الحسبة على الطباخين، يأمرهم المحتسب بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار والأشنان.

وفي الحسبة على قلائين السمك يؤمرون كل يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التي يحملون فيها السمك، وينشرون فيها الملح المسلوق في كل يوم بعد الغسل، وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص، لأنهم اذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها وكثر وسخها، وفي الحسبة على بائعي السمك يأمرهم بمواصلة غسل حصرهم وموازينهم، وجميع آلاتهم، وقفاف الحمالين أيضاً، ويرشوا عليها الملح عند انصرافهم لتنقطع رائحتها، فمن خالف ذلك وكانت قفته من الحمالين أدب وأشهر، ومن اشترى سمكاً لنفسه فليكن حمله في زنبيل معه، لكي لا يعدم به ثياب الناس في الأسواق، ومن وجد حاملاً سمكاً في يده وضع في حجرة تأديباً.

وفي الحسبة على منكرات الأسواق، يأمر المحتسب أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ المجتمعة وغير ذلك مما يضر الناس.

وكانت توكل الى المحتسب مهمة مراقبة تلوث بيئة المدينة والأسواق من التلوث بالروائح، فهو مكلف بمنع كل من تسول له نفسه ان يطرح النفايات والجيف في الأسواق والطرقات، ومنع

الخضارين وغيرهم من طرح ازبالهم في الطرق، حتى لا تنتج عنها روائح كريهة، وحتى لا تكون مرتعا للحشرات ومصدرا من مصادر التلوث

وهكذا نرى أن من واجبات المحتسب وأعوانه هو حماية البيئة من التلوث، وله أن يتخذ من الوسائل المناسبة ما يحقق هذا الهدف، وما ضربه فقهاؤنا من أمثلة يظهر لنا بوضوح هذا الأمر، و يقاس عليها تلوث البيئة العصري من نفايات المصانع الحديثة التي تلقى في البحار والصحراء، فتضر بالإنسان والحيوان والنبات والطير والماء والهواء ، وما تخلفه هذه المصانع من دخانها الكثيف نتيجة تشغيل آلاتها، مما يعم ضرره .[1]

ثانيا – الجزاء على حماية البيئة والمحافظة عليها

شرع الاسلام الجزاء للذي يحافظ على البيئة في مكة المكرمة وغيرها، ويحميها من الفساد، ويصونها من التدمير والعبث، وتمثل ذلك في الجزاء الاخروي والدنيوي :

أ . الجزاء الأخروي

وهو ما اعده الله تعالى لعباده من الثواب للمطيعين، ومن العقاب للعاصين، وقد تعلق هذا الجزاء على العناية بعناصر البيئة ترغيبا وترهيبا، وثوابا وعقابا، بما يكشف مدى اهتمام الاسلام بعناصرالبيئة،ومصادرها ومقوماتها، ومن ذلك :

١– انظر : معالم القربة في أحكام الحسبة : ١٥٠ ، الاهتمام بالبيئة وحمايتها من التلوث في الإسلام للدكتور محمد علي عبدالرحمن : ٤٣ – ٤٥ .

١- الترغيب في غرس الأشجار وانه صدقة جارية كلما أكل منه إنسان او طير او بهيمة .

قال عليه الصلاة والسلام : ((ما من مسلم يغرس غرسا الا كان ما أُكِلَ منه له صدقة ، وما سُرِق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزؤه احد إلا كان له صدقة))[١] .

وفي رواية أخرى لمسلم: "لا يغرس مسلم غرسا ، ولا يزرع زرعا ، فيأكل منه إنسان ، ولا دابة ، ولا شيء إلا كانت له صدقة "

وفي رواية له ايضا : " إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة "

قال الإمام النووي :" في هذه الأحاديث فضيلة الغرس ، وفضيلة الزرع ، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغراس والزرع ، وما تولد منه ، إلى يوم القيامة " [٢]

٢- الترغيب في الرحمة بالحيوانات والشفقة عليه ، إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((بينما رجل يمشي ، فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منه ، ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ، ثم امسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له ، قالوا يا رسول الله : وان لنا في البهائم أجرا ؟

١- اخرجه مسلم برقم ١٥٥٢ ، ومعنى قوله " ولا يرزؤه أحد " : أي ينقصه ويأخذ منه . شرح صحيح مسلم للنووي : ١٠/ ٢١٣

٢ - المصدر السابق : ١٠ / ٢١٣ .

قال : ((في كل كبد رطبة اجر))[١].

قال الإمام النووي : " معناه في الإحسان إلى كل حيوان حي بسقيه، ونحوه أجر، وسمى الحي ذا كبد رطبة، لأن الميت يجف جسمه وكبده، ففي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم، وهو ما لا يؤمر بقتله، فأما المأمور بقتله فيمتثل أمر الشرع في قتله، والمأمور بقتله كالكافر الحربي، والمرتد، والكلب العقور، والفواسق الخمس المذكورات في الحديث، وما في معناهن. وأما المحترم فيحصل الثواب بسقيه، والإحسان إليه أيضا بإطعامه وغيره سواء كان مملوكا، أو مباحا، وسواء كان مملوكا له، أو لغيره " [٢]

٣ – الترهيب من تعذيب الحيوانات وتجويعها وإرهاقها بما لا تطيق او التسبب في فنائها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)) [٣].

وفي حديث آخر " أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قرية نمل قد أحرقت فقال : من احرق هذه ؟ قلنا نحن قال : ((انه لا ينبغي أن يعذب بعذاب النار إلا رب النار))[٤].

١– اخرجه البخاري في صحيحه برقم ٢٢٣٤ ، ومسلم في صحيحه برقم ٢٢٤٤ .

٢ – شرح صحيح مسلم : ١٤ / ٢٤١ .

٣ – أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣١٤٠ ، ومسلم في صحيحه برقم ٢٦١٩ .

٤– أخرجه ابو داود في سننه برقم (٢٥٤٩)

٤– الترهيب من قطع سدر الحرم وغيره :

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام ((من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)) [١].

وقد تقدم الكلام على هذا الحديث في الفصل الثاني من هذا البحث .

ب . الجزاء الدنيوي :

هو ما يناله المكلف المطيع في الدنيا من ثواب، وما يلحق العاصي من عقاب، ومن نماذج الجزاء الدنيوي :

١– وجوب الضمان عند الاعتداء على البيئة الحيوانية في مكة المكرمة .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين امنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ﴾ [٢]

قال الإمام النووي : " فإن اتلف صيدا ضمنه، ففي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش وحماره بقرة، والغزال عنز، والأرنب عناق، واليربوع جفرة، وما لا نقل فيه يحكم بمثله عدلان، وفيما لا مثل له القيمة " [٣]

١–أخرجه ابو داود برقم ٥٢٣٩ .

٢– سورة المائدة : ٩٥ .

٣– منهاج الطالبين ١/ ٥٠٧ – ٥٠٨ ، والعناق : هي الأنثى من أولاد المعز وتسمى بذلك من وقت ولادتها الى أن تبلغ الحول ، فإذا بلغت الحول سميت عنزا . والجفرة : هي أولاد المعز إذا بلغ أربعة أشهر ، وفصل عن أمه وأخذ في الرعي ،قيل له جفر ، والأنثى جفرة . النهاية في غريب الحديث والأثر : ١/ ٢٧٨ ، ٣/ ٣١١ ، معجم مقاييس اللغة : ٤ / ١٦٣ .

٢- وجوب الضمان عند قطع شجر الحرم وإتلاف البيئة النباتية في مكة المكرمة .

قال الامام النووي : " ويحرم قطع نبات الحرم الذي لا يستنبت، والأظهر تعلق الضمان به، وبقطع اشجاره، ففي الشجرة الكبيرة بقرة، والصغيرة شاة ، والمستنبت كغيره على المذهب " [١]

٣- النفع الذي يتم مقابل الإحياء المتمثل في تمليك الأرض :

فقد حث الإسلام على إحياء الأرض الموات – وهي الأرض التي لم تزرع، ولم تعمر، ولا جرى عليها ملك أحد – وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : ((من أحيا أرضا ميتة فهي له))[٢] .

وفي رواية ابن حبان ((من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر))[٣]

قال الإمام الخطابي : " إحياء الموات إنما يكون بحفره، وتحجيره، وإجراء الماء إليه، ونحوها من وجوه العمارة، فمن فعل ذلك، فقد ملك به الأرض، سواء كان ذلك بإذن السلطان ، أو بغير إذنه " [٤]

١- منهاج الطالبين : ١ / ٥٠٩

٢- أخرجه ابو داود في سننه برقم ٣٠٧٣ .

٣- أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ٥٢٠٢

٤ – عون المعبود شرح سنن أبي داود :٨ / ٢٢٧ .

ثالثا : تدريب المسلم على احترام البيئة

ويتجلى حرص الإسلام على احترام البيئة والمحافظة عليها من خلال تدريب المسلم إذا احرم بالنسك على احترام حيوانات البيئة المكية ونباتاتها فلا يحل له قتل صيد البر والحرم، ولا قطع نبات الحرم . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ﴾ [١].

وقال صلى الله عليه وسلم ((إن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده))[٢]

وهكذا نرى أن الإسلام قد اهتم بالبيئة المكية اهتماما زائدا على غيرها، ودعا أتباعه الى حمايتها، وبين لهم أن هذه الحماية أمانة ومسؤولية، يتطلبها الإيمان، وتقتضيها عقيدة الاستخلاف في الأرض، ويترتب عليها الثواب والعقاب .

***

١– سورة المائدة : ٩٥ .

٢– اخرجه البخاري برقم ١٧٣٧ .

خاتمة البحث :

وبعد هذا التجوال والتطواف في رحاب تعاليم الاسلام ومنهجه في حماية البيئة المكية، اضع بين ندوتكم الغراء مجموعة من التوصيات والمقترحات التي ارجو ان ترى النور في مستقبل الأيام :

أولا – التأكيد على دور التربية البيئية ورفع الوعي البيئى من منظور إسلامي وبخاصة فيما يتعلق بالنشء بغرض تأصيل السلوك السليم للتعامل مع البيئة .

ثانيا ـ تشجيع الباحثين المتخصصين فى مجالات العلوم البيئية وعلوم الفقه والشريعة على التعاون لتأصيل المفاهيم الإسلامية للبيئة وتطويرها لتتماشي مع القضايا البيئية المعاصرة .

ثالثا ـ العمل على رفع الوعي البيئى بمنظوره الإسلامي لدي الأسرة المسلمة والتأكيد على دورها كوحدة أساسية فى بنية المجتمع

رابعا ـ التأكيد على واجب المسجد فى رفع الوعي البيئى من منظور إسلامى .

خامسا ـ التأكيد على دور وسائل الإعلام المختلفة فى التوعية البيئية من منطلق إسلامي .

سادسا – التأكيد على المنظور الإسلامي للبيئة فى مناهج التعليم وبرامجه فى المدارس والجامعات بالدول الإسلامية .

سابعا ـ دعم الجمعيات والهيئات الأهلية وغير الحكومية للعمل فى مجالات البيئة من المنظور الإسلامي وتشجيعها .

ثامنا ـ تأصيل المفاهيم الإسلامية وتطبيقاتها بشأن التوازن البيئى من منطلق العدل والإحسان والاحتساب القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى المجالات البيئية كأساس للتعامل مع قضايا البيئة وحمايتها في العالم الإسلامي، والتأكيد على الأبعاد الروحية والأخلاقية فى التعامل مع البيئة .

تاسعا – تبني المنظور الإسلامي فيما يتعلق بأنماط الإنتاج والاستهلاك المتوازنة بيئياً واستخدام أساليب التقانة الملائمة للبيئة .

عاشرا ـ التأكيد على تبنى الأجهزة البيئية بالدول الإسلامية للمنظور الإسلامي للبيئة وتطويره بما يتناسب مع القضايا البيئية المعاصرة .

حادي عشر ـ سن الأنظمة والقوانين البيئية فى الدول الإسلامية وتطويرها انطلاقاً من المنظور البيئى للإسلام مع تفعيل النظم الإسلامية كالوقف والإحياء والحسبة والحمى ودعمها.

واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

***

المصادر والمراجع

١- الإسلام والبيئة، محمد مرسي محمد مرسي، الرياض ١٤٢٠ – ١٩٩٩ م. أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية .

٢- الإسلام والبيئة / السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧.

٣- بحوث مؤتمر "نحو دور فاعل للقانون في حماية البيئة وتنميتها" الذي نظمته جامعة الإمارات في شهر مايو ١٩٩٩م.

٤- البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث ((رؤية إسلامية))، لمحمد عبد القادر الفقير، مكتبة ابن سينا، مصر.

٥- التصوير القرآني للمجتمع، د. صلاح الفوال، دار الفكر العربي، بيروت .

٦- التلوث وحماية البيئة (قضايا البيئة من منظور إسلامي، د. محمد منير حجاب . دار الفجر للنشر والتوزيع ١٩٩٩.

٧- خواطر إسلامية في التوعية البيئية والسكانية، لمصطفى كامل مصطفى ١٩٩٩ م، مطبعة نهضة مصر / القاهرة.

٨- سنن أبي داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت، لبنان .

٩- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

١٠- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان .

١١- شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية .

١٢- صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .

١٣- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .

١٤- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

١٥ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٩٥م .

١٦ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ .

١٧- الكليات الكبرى لابي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٨- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٩- مسند احمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر . الطبعة الأولى .

٢٠- معالم القربة في أحكام الحسبة لمحمد بن أحمد القرشي بابن الاخوة، دار الحداثة للطباعة، بيروت ١٩٩٠ م .

٢١- منهاج الطالبين للإمام النووي، تحقيق د أحمد عبدالعزيز الحداد، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م .

٢٢- نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام المحتسب، دار الحداثة للطباعة .بيروت ١٩٩٠ م .

٢٣- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، مصر .